الإسلام يعالج مشكلة الفقر

بقلم
الدكتور محمد محمد عبد الحى
مدرس الفقه الإسلامى

اعتنى الإسلام بعلاج الفقر ، واهتم بالفقراء وذوى الحاجة اهتماما لم يسبق له نظير فى ديانة سماوية ، ولا فى قانون وضعى .

فنحن لو ألقينا نظرة على الأديان السماوية ، نجد أن دعوة الأنبياء لاتخلو من هذا الجانب الإنسانى الذى سماه القرآن « الزكاة » .

فإن القرآن الكريم تحدث عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، بقوله : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين »(١) .

ويتحدث عن إسماعيل فيقول :

« واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا »(٢) .

وقال على لسان عيسى فى المهد :

« وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا »(٣) .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٧٣ .

(٢) سورة مريم آية : ٥٩ .

(٣) سورة مريم آية : ٣١ .

وقال عن رجل فى أهل الكتاب عامة :

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة »[1] .

ولو نظرنا إلى أسفار التوراة والإنجيل ، نجد أنها تشتمل على كثير من الوصايا الخاصة بالعطف على الفقراء والمساكين .

ففى التوراة : « من يسد أذنيه عن صراخ المسكين ، فهو أيضاً يصرخ ولا يستجاب له ، الهدية فى الخفاء تطفىء الغضب »[2] .

وكذلك نجد قوله . من يعطى الفقير لا يحتاج ، ومن يحجب عنه عينيه عليه لعنات كثيرة »[3] .

وفى الإنجيل : « بيعوا مالكم واعطوا صدقة »[4] .

وكذلك : « من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا »[5] .

إننا لا ننكر أن هذه عناية لا بأس بها بالفقراء وذوى الحاجات .

ولكنها لا تصل إلى عناية الإسلام بعلاج مشكلة الفقر ، حيث إننا نستطيع أن نبدى بعض الملاحظات على موقف الأديان الأخرى - من الفقر والفقراء - قصرت بها عن أن تجارى الإسلام فى سموه وعظمته ، فى هذا الموقف .

---

(١) سورة البينة : الآية ٥ .

(٢) الإصحاح ٢١ من سفر الأمثال .

(٣) الفقرة ٢٧ من سفر الأمثال .

(٤) الفقرة ٣٣ من الإصحاح ١٣ من إنجيل لوقا .

(٥) الفقرة ١٠ - ١٤ من إنجيل لوقا .

فمثلا : لو أمعنا النظر ، ودققنا الفكر ، نجد أن الإنجيل والتوراة يبينان :

١ - أن المقصود من الإحسان إلى الفقراء ، لن يكن هو علاج مشكلة الفقر . بل كان المقصود ، لا يتجاوز القليل من بؤسهم ، والتخفيف من ويلاتهم .

٢ - علاج الفقر فى الأديان السماوية ، ولا يعدو أن يكون ترغيباً فى الإحسان والعطف ، وترهيباً من الأنانية والبخل، ودعوة إلى التصدق الفردى الاختيارى ، الذى لا إجبار فيه .

٣ - إنها لم تحدد المال الذى تجب فيه الصدقة والإحسان ، ولا توضح شروطه ، أو المقدار الواجب فيه ، وهذا ما يؤدى إلى إهمال التحصيل والتفريط فيه .

٤ - إن هذه الأديان جعلت البر والإحسان بالفقراء، موكولا إلى أريحية الأفراد ، وإلى ضمائرهم ، وليس هناك سلطان عليهم ،فى التحصيل أو التوزيع.

٥ - لن يكن هناك إلزام على أحد فى الأداء ، بحيث يشعر من تركها أنه ترك ركنا من أركان الدين ، يعاقب على تركه بالعذاب الشديد .

ومن هنا ، كان الفقراء وذوى الحاجة ، تحت رحمة الأغنياء القادرين ، ومنهم إذا حركهم حب الله ، أوجب الشكر والثناء ، أو المروءة . جاءوا بما يرونه . ولو كان حقيراً تافهاً . على الفقراء وذوى الحاجة ، فهم أصحاب الفضل والمنة . وإذا غلب عليهم حب المال، ضاع الفقير والمسكين ، وافترستهم مخالب الفاقة ولم يجدوا من يدافع عنهم ، أو يطالب بحقوقهم .

وهذا هو الفارق بين الإسلام الذى جعل لهم حقاً معلوما ، وبين الأديان الأخرى التى وكلت إلى الأفراد علاج الفقر باختيارهم .

عظمة الإسلام فى علاج الفقر :

إن من أوضح البراهين على عناية الإسلام بمشكلة الفقراء ، واهتمامه

بشئون الفقراء ، إنه منذ بزغ فجر الإسلام فى مكة ، والمسلمون أفراد وقلائل معدومون مضطهدون فى دينهم ، محاربون فى دعوتهم ، ليس لهم دولة ولا كيان سياسى .

كان هذا الجانب الإنسانى الاجتماعى - جانب رعاية الفقراء والمساكين - موضع عناية بالغة ،واهتمام مستمر من القرآن الكريم، ذكره القرآن أحيانا باسم إطعام المسكين والحض عليه ، وأحيانا تحت عنوان الإنفاق مما رزق الله تعالى ، وتارة باسم أداء حق السائل والمحروم والمسكين وابن السبيل ، وطوراً بعنوان إيتاء الزكاة[1] .

وحسبنا أن نقرأ فى السورة المكية هذه النماذج من آيات الكتاب العزيز حين بين فى سورة المدثر ، أن إطعام المسكين من لوازم الإيمان فقد عرض القرآن الكريم مشهداً رائعاً من مشاهد الآخرة - مشهد أصحاب اليمين من المؤمنين . فى جناتهم يتساءلون عن المجرمين من الكفرة والمكذبين .

وقد أطبقت عليهم النار ، فيسألونهم عما أحل بهم هذا العذاب ؟ فكان من أسبابه وموجباته ، إهمال حق المسكين ، وتركه لأنياب الجوع والعرى تنهشه وهم عنه معرضون . قال الله تعالى فى ذلك :

« كل نفس بما كسبت رهينة ◦ إلا أصحاب اليمين ◦ فى جنات يتساءلون ◦ عن المجرمين ◦ ما سلككم فى سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين ◦ ولم نك نطعم المسكين ◦ وكنا نخوض مع الخائضين ◦ وكنا نكذب بيوم الدين »[2] .

ومثل إطعام المسكين ،كسوته وإيواؤه ورعاية ضروراته وحاجاته .

وفى سورة القلم ، يقص الله سبحانه على عباده ، قصة أصحاب الجنة الذين

---

(١) قصة الزكاة ص ٥٢ ج ١ د . يوسف القرضاوى .

(٢) سورة المدثر : ٣٨ - ٤٦ .

تواعدوا أن يقطفوا ثمارها بليل ؛ ليحرموا منها المساكين الذين اعتادوا أن يصيبوا شيئاً من خيراتها ، يوم الحصاد ، فحلت بهم عقوبة الله العاجلة :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم * فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد قادرين * فلما رأوها قالوا: إنا لضالون * بل نحن محرومون * قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون؟ قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا : ياويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »[1] .

وقد حث القرآن الكريم على رعاية المسكين ، فلم تقف عناية القرآن عند الرحمة به ، والترغيب فى إطعامه ورعايته ، والترهيب من إهماله والقسوة عليه ، بل تجاوز ذلك ، فجعل فى عنق كل مؤمن حقاً له ، وأن يحض غيره على إطعامه ورعايته ، وجعل ترك هذا الحض قرين الكفر بالله العظيم ، وموجباً لسخطه وعذابه فى الآخرة . فيقول تعالى فى شأن أصحاب الشمال ، من سورة الحاقة .

« وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول : يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * ياليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه »[2] .

ثم يصدر رب العالمين عليه الحكم العادل ، بالعقاب الذى يستحقه :

« خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » .

ولم كل هذا العذاب والهوان والخزى على رؤوس الأشهاد ؟

---

(١) سورة القلم الآيات من ١٩ - ٣٣ .

(٢) سورة الحاقة الآيات من ٢٥ - ٣٤ .

« إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين » .

والحض : هو الحث والترغيب والدعاء .

وهذه الآيات الهادرة بالوعيد ، المنذرة بالعذاب الشديد ،المزلزلة للقلوب، هى التى جعلت مثل أبى الدرداء - رضى الله عنه - يقول لامرأته : ياأم الدرداء: إن لله سلسلة لم تزل تغلى بها مراجل النار منذ خلق الله جهنم ، إلى يوم تلقى فى أعناق الناس ، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم ، فحضى على طعام المسكين يا أم الدرداء[1] .

ولم تر الدنيا كتاباً قبل القرآن الكريم ، يجعل ترك الحض على رعاية المسكين من موجبات صلى الجحيم والعذاب الأليم[2] .

وفى سورة « الفجر » خاطب الله - سبحانه وتعالى - أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أن لهم ديناً يقربهم إلى الله زلفى ،وأنهم على كل شىء من ديانة أبيهم إبراهيم عليه السلام .

فقال تعالى زاجراً لهم رادعاً :

« كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضون على طعام المسكين »[3] .

والتحاض : تفاعل من الحض . فمعنى تحاضون : يحض بعضكم بعضاً . وفيه دعوة المجتمع إلى التضامن والتعاون على رعاية المسكين والعناية بأمره .

قال الإمام محمد عبده :

« وإنما ذكر التحاض على الطعام ، ولم يكتف بالإطعام . فنقول : ولن تطعموا المسكين ؛ ليصرح لك بالبيان الجلى ، أن أفراد الأمة متكافلون ، وأنه

---

(١) الأموال لأبى عبيد ص ٣٥٥ - المكتبة التجارية بالقاهرة .
(٢) فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوى ص ٥٤ جـ ١ .
(٣) سورة الفجر الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

يجب أن يكون لبعضهم على بعض ، عطف بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، مع التزام كل بما يأمر به ، وابتعاده عما ينهى عنه »[1] .

وفى سورة « الماعون » جعل قهر اليتيم ، وإضاعة المسكين ، ومن لوازم الكفر والتكذيب بيوم الدين « ؟ - والخطأ لكل من يفهم ، أى هل تبينت من هو المكذب بالدين ؟ إن لم تكن تبينته فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين »[2] .

يقول الإمام محمد عبده :

« الحض على طعام المسكين : الحث عليه ، ودعوة الناس إليه ، والذى لا يحض على إطعام المسكين ، لا يطعمه فى العادة . فقوله :

« ولا يحض على طعام المسكين » كناية عن الذى لا يجود بشىء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت ، الذى لا يستطيع له كسباً ، وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين، ولن تجد ما تعطيه ، فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه. وفيه حث للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم . وهى - كما يقول الدكتور القرضاوى فى كتابه « فقه الزكاة » طريقة الجمعيات الخيرية ، فأصلها ثابت فى الكتاب بهذه الآية . وبنحو قوله تعالى فى سورة الفجر : « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » ونعمت الطريقة هى : لإعانة الفقراء وسد شىء من حاجات المساكين[3] ثم قال الله تعالى ، تفريعاً على تعريف المكذب بيوم الدين :

« فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون »[4] .

---

(١) تفسير جزء عم ص ٨٣ الإمام محمد عبده - طبعة ثالثة مطبعة مصر .

(٢) سورة الماعون الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) تفسير جزء عم ص ١٦٢ للإمام محمد عبده .

(٤) سورة الماعون الآيات ٤ - ٧ .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره ، أى لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه ، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ، ورجوعه إليهم . فهؤلاء بمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى »[1] فمثل أولئك لا تنفعهم صلواتهم ، ولا تنقلهم إلى زمرة المصدقين بيوم الدين .

التكافل الاجتماعى :

الناس فى مجتمعهم الذى يعيشون فيه ، يحتاجون بعضهم إلى بعض فى كل شئون الحياة، وهم فى مجموعهم يؤلفون قوة متماسكة لا تبدو فى تماسكها إلا بقوة كل فرد من أفرادها وسعادته ، كالجيش لا تتم له قوته إلا إذا كان كل فرد فيه قويا فى جسمه ومعنوياته . وبمقدار ما تتوفر هذه القوة للأفراد يعتبر مجتمعا قويا ، وبمقدار ما تتوافر السعادة لكل فرد فيه ، يعتبر سعيداً . قال تعالى حاثا للناس على هذا التماسك :

« إنما المؤمنون إخوة »[2] .

وقد فطن العالم فى عصره الحديث، إلى هذه الحقيقة، وبدأ ينادى بالتكافل الاجتماعى ، بين أفراد المجتمع . وقصر مفهوم التكافل الاجتماعى على تحقيق المطالب المعاشية للفئات المحرومة من الغذاء والكساء والسكن . بيد أن الإسلام قد فطن إلى هذه الحقيقة من أربعة عشر قرنا ، فبعد أن قرر لكل مواطن تلك الحقوق الخمسة ، التى لا تتم كرامة الإنسان وسعادته بفقدان واحد منها ، نظر إلى الذين تحول ظروفهم المعيشية فى الحياة بين تمتعهم بها ، فاعتبر المجتمع هو المسئول عن تحقيقها لهم . والإسلام حين ينادى بالتكافل الاجتماعى ، لم يجعله قاصراً على المطالب الغذائية أو السكنية أو الكسائية فحسب ، بل يجعله شاملا للحقوق التى تجعله إنسانا مكرما .

(١) تفسير ابن كثير ص ٥٥٥ ج ١ ط . الحلبى .

(٢) سورة الحجرات الآية : ١٠ .

مبدأ التكافل الاجتماعى فى الإسلام :

يتجلى إعلان الإسلام لمبدأ التكافل الاجتماعى فى نصوص كثيرة من القرآن والسنة . ونحن نجتزىء بنصين من كتاب الله تعالى ، وبثلاثة من حديث رسول الله ﷺ .

فمن القرآن الكريم يقول الله تعالى :

« إنما المؤمنون إخوة »(١) .

إن إعلان الإخاء بين أفراد المجتمع ، يوجب التكافل بينهم ، لا فى الطعام والشراب وحاجيات الجسم فحسب ، بل فى كل حاجة من حاجيات الحياة .

أترى الأخ يحرص على طعام أخيه الجائع ، وكساء أخيه العريان ، وسقاء أخيه العطشان فحسب ؟ أم هو يحرص على حياته وحريته وثقافته وكرامته ومكانته الاجتماعية أيضاً ؟ ألا تراه يحزن لحزنه ولو كان هذا الأخ طعماً كاسياً ؟ أو تراه يضطرب لمستقبله وحاضره ولو كان هذا الأخ مستقراً ثاويا ؟ .

إن تقرير الإخاء بين اثنين ، هو تقرير للتكافل والتضامن بينهما فى المشاعر والأحاسيس .

وجاء فى القرآن الكريم قول الله تعالى :

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »(٢) .
وهذه الآية توجب التكافل على البر والتقوى ، فما هو البر؟ وماهى التقوى ؟ .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٠ .
(٢) سورة المائدة الآية ٢ .

معنى البر فى القرآن الكريم :

١ — جاء البر فى القرآن بمعنى : حسن المعاملة ، وطيب العشرة ، ومكارم الأخلاق والبعد عن أعمال الشقاوة والطغيان ، قال تعالى :

« وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً »[1] .

٢ — وجاء بمعنى الإنفاق والبذل فى سبيل الله . قال تعالى :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »[2] .

٣ — وجاء بمعنى العبادة من صلاة وزكاة . قال تعالى :

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون »[3] .

٤ – وجاء بمعنى مجموعة من الفضائل النفسية والاعتقادية والخلقية . قال تعالى :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »[4] .

معنى التقوى فى القرآن الكريم :

أما تحديد معنى التقوى ، فقد جاء واضحاً صريحاً فى عديد من آيات القرآن الكريم .

---

(١) سورة مريم الآية ٣٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٩٢ .
(٣) سورة البقرة الآية ٤٤ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

١ - جاء بمعنى مجموعة من الفضائل الاعتقادية والنفسية والخلقية . قال تعالى : «الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »[1] .

٢ - وجاء بمعنى القيام بشئون المحرومين والمحتاجين وإيتائهم حقوقهم التي شرعها الله تعالى في دينه . قال تعالى :

« إن المتقين في جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم »[2] .

معنى البر والتقوى في الحديث الشريف :

١ - وجاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال :

« ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[3] .

وهذا نص في تكافل المجتمع ومسئولية أفراده عن آلام فرد واحد منه .

٢ - وجاء أيضاً قول النبي ﷺ :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضهما بعضا ، ثم شبك رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه تأكيداً لمعنى « يشد بعضهما بعضا »[4] .

---

(١) سورة البقرة الآيات من ١ - ٣ .

(٢) سورة الذاريات الآيات من ١٥ - ١٩ .

(٣) البخاري في الأدب المفرد جـ ٢ ص ٣١ .

(٤) صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٢٣ .

وهذا مما لا يحتاج إلى شرح دلالته على مبدأ التكامل الاجتماعي ؛ وذلك لأن أقوا م لهم ركن شديد ، وضعيفهم مستند لذلك الركن القوى فإذا والاه قوى بما بباطنه ، ثم نقل عن الراغب قوله :

« إنه لما صعب على كل واحد أن يحصل لنفسه أدنى مايحتاج إليه إلا بمعاونة له ، فلقمة الطعام لو عددنا تعب تحصيلها من زرع وطحن وخبز وصناع آلاتها لصعب حصره ؛ فلذلك قيل : الإنسان مدنى بالطبع ، ولا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه ، بل يفتقر بعضهم لبعض فى مصالح الدارين ، وعلى ذلك نبه الحديث[1] .

٣ ـ وقال صلى الله عليه وسلم :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[2] .

أترى الإنسان يحب لنفسه الخبز واللحم والثوب فحسب ، أم هو يحب لنفسه قبل ذلك كله ، الحياة والكرامة والحرية والعلم ، وكل ما تتحقق به سعادة الحياة ؟

حق السائل والمحروم والمسكين وابن السبيل :

وفى سورة الذاريات ، ذكر الله تعالى المتقين الذين استحقوا عنده الجنات والنعيم ، فكان من أبرز أوصافهم قوله :

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »[3] .

والسائل هو الذى يبتدىء بالسؤال وله حق ، والمحروم من لا مال له ولا كسب ، ولا حرفة يتقوت منها .

---

(١) فتح القدير ـ للكمال بن همام جـ ٦ ص ٢٥٢ .

(٢) صحيح البخارى جـ ٣ ص ١٢٧ .

(٣) سورة الذاريات الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

فقد أدرك هؤلاء المتقون ، أن أموالهم ليست ملكا لهم يستأثرون به ، وإنما فيها جزء لغيرهم من المحتاجين ، ليس هبة منهم إليهم ، ولا تفضل منهم عليهم بل هو « حق » لهم ، لا هوان فيه على الآخذ ، ولا ما فيه من الدافع .

وفى سورة المعارج ، إعادة لهذا الوصف بزيادة كلمة أخرى عليه ، وقد جاء ذلك فى صفات المؤمنين ، الذين انتصروا بقوة إيمانهم وأخلاقهم على ضعف الإنسان الذى « خلق هلوعا ﴿إذا مسه الشر جزوعا ﴿ وإذا مسه الخير منوعا ﴿ إلا المصلين ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم ﴿ للسائل والمحروم »[1] .

فهنا قد وصف الحق الذى فى أموالهم بأنه « معلوم » وهذا ما جعل بعض العلماء يقولون : إنه الزكاة لأنها الحق المعلوم المقدر فى أموال الأغنياء .

وهم يعلمون أن السورة مكية ولا شك ، والزكاة المعروفة ، لم تفرض إلا فى المدينة ، والحق المعلوم هنا إلا أنه جزء مقسوم ، قد فرضوه على أنفسهم وعينوه للسائل والمحروم »[2] .

فالفرق بين هذا الحق ، وبين الزكاة أن هذا معلوم بتحديدهم وتقديرهم أنفسهم ، أما الزكاة فمعلوم بتحديد الشارع وتقديره .

وفى سورتى الإسراء والروم يقول تعالى :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا »[3] .

« فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله »[4] .

---

(١) سورة المعارج الآيات ١٩ ، ٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٣٤ .

(٣) سورة الإسراء الآية : ٢٦ .

(٤) سورة الروم الآية : ٣٨ .

وبهذا غرس القرآن فى دوح المسلم منذ أوائل العهد المكى ، أن للقريب والمحتاج ، حقه ، المحتوم فى ماله ، يجب أداؤه عليه ، وليس بمجرد صدقة تطوعية ، يدفعها إن شاء ، ويتركها متى شاء[1] .

الحق فيما تخرجه الأرض :

وفى سورة الأنعام . قال الله عز وجل :

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[2] .

فنبه الله عباده بهذه الآية على أن فيما تخرج الأرض من زرع وثمر حقا لازما ، يجب إيتاؤه يوم الحصاد .

فعن سعيد بن جبير قال :

« كان هذا قبل أن تنزل الزكاة . الرجل يعطى من زرعه ويعلف الدابة ، ويعطى اليتامى والمساكين ، ويعطى الضغث » .

فهذا حق مطلق غير مقيد بعشر أو نصف عشر ، بل هو متروك لإيمان صاحب الزرع والثمر ، وحاجة المساكين من حوله ، وعرف الناس فى بلده . ثم بين رسول الله ﷺ ، نصاب هذا الحق ، ومقداره فى المدينة بما أوجبه من العشر أو نصفه ، فيما بلغ خمسة أوسق من الحب والثمر ، وقد سمى بعضهم هذا البيان نسخا لما كان فى مكة ، ولكنه ليس النسخ المصطلح عليه عند المتأخرين .

---

(١) فقه الزكاة د / يوسف القرضاوى جـ ١ ص ٥١٧ .

(٢) سورة الأنعام آية : ١٤١ .

علاج الفقر في مكة :

آيات كثيرة نزلت في مكة ، تحث الأغنياء على رعاية الفقراء والمساكين ، وإيتائهم حقوقهم من المال ، حتى لا يضيعوا في مجتمع من المؤمنين .

وقد أوجبت هذه الآيات بأسلوب آخر . هو « إيتاء الزكاة » ثناء على فاعليها ، أو ذما لتاركيها ، كما نرى ذلك واضحاً في أساليب الآيات القرآنية المكية .

ففي سورة الروم يأمر الله تعالى بأداء حق القريب والمسكين وابن السبيل ، ويوازن بين الربا وأثره الذي يزيد المال في الظاهر ، وينقصه في الحقيقة - وبين أثر الزكاة ، التي تنقص المال ظاهراً وتزيده باطناً - يقول الله تعالى :

« فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون * وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون »[1]

وفي سورة النمل ، وصف الله المؤمنين الذين جعلوا كتابه هدى ونوراً وبشرى فقال :

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين * هدى وبشرى للمؤمنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون »[2] .

وفي عطف إيتاء الزكاة على إقامة الصلاة ، دليل على أنها زكاة المال ، كما هي سنة القرآن .

وفي سورة لقمان . يقول الله تعالى :

---

(١) سورة الروم الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة النمل الآيات من ١ - ٣ .

« هدى ورحمة للمحسنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة »[1] .

وفى هذا العطف أيضاً ، دليل على أنها زكاة المال ، مثل الآية السابقة .

ويبين الله سبحانه أوصاف المؤمنين ، الذين يرثون الفردوس . فيقول فى سورة « المؤمنون » : « والذين هم للزكاة فاعلون »[2] .

ويقول سبحانه أثناء ذكره لقصة موسى وقومه :

« ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى »[3] .

وفى سورة فصلت ، توعد الله المشركين ، وذكر أخص أوصافهم ، فكان عدم إيتاء الزكاة والكفر بالآخرة . قال سبحانه :

« فويل للذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون »[4] .

فإذا كان المؤمنون المحسنون ، يؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون هؤلاء لا يؤتون الزكاة وبالآخرة هم كافرون .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالزكاة هنا : زكاة النفس وطهارتها من الرذائل ، وعلى رأسها الشرك . كقوله تعالى :

« قد أفلح من زكاها »[5] وقوله : « قد أفلح من تزكى »[6] .

وذلك فراراً من القول بالزكاة المالية ، التى اشتهر أنها لم تشرع إلا بالمدينة .

---

(١) سورة لقمان آية ٤ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٤ .

(٣) سورة الأعراف الآيتان ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٤) سورة فصلت الآيتان ٦ ، ٧ .

(٥) سورة الشمس الآية ٩ .

(٦) سورة الأعلى الآية ١٤ .

ورد ابن جرير الطبرى هذا القول ، واختار أن المعنى : لا ينفقون من أموالهم زكاتها ، ومما استدل به على ذلك ، اشتهار لفظ الزكاة ، فى زكاة المال »[1] .

ومما يؤدى اختيار الطبرى : اقتران الزكاة بالإيتاء . والإيتاء هو : الإعطاء . وأولى شىء بذلك هو زكاة المال .

والملاحظ أن الآيات المكية فى حديثها عن الزكاة ، أنها لن توردها بصيغة الأمر الدال على الوجوب دلالة مباشرة ، ولكنها أوردتها فى صورة خبرية باعتبارها وصفاً أساسيا للمؤمنين والمتقين والمحسنين»[1] الذين يؤتون الزكاة . أو الذين هم للزكاة فاعلون ، والذين خصهم الله بالفلاح « أولئك هم المفلحون » كما أخبر أن تركها من خصائص المشركين « الذين لا يؤتون الزكاة » .

وإذا كان إيتاء الزكاة من الأوصاف الأساسية للمؤمنين المفلحين ، وتركها من الأوصاف اللازمة للمشركين ، فذلك يدل على الوجوب ، إذ التحلى بصفات المؤمنين ، والخروج عن خصائص المشركين ، أمر واجب لا نزاع فيه . يضاف إلى ذلك الأمر فى قوله تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده » .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام : أن الزكاة التى ذكرت فى القرآن المكى ، لم تكن هى بعينها الزكاة التى شرعت فى المدينة ، وحددت أنصبتها ومقاديرها ، وأرسل الرسول ﷺ السعاة لجبايتها وصرفها ، والتى أصبحت الدولة مسئولة عنها ، وعن تنظيمها .

كانت الزكاة فى مكة ، زكاة مطلقة من القيود والحدود ، وكانت

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٩٣ .

(٢) فقه الزكاة : د يوسف القرضاوى جـ ١ ص ٦٠ .

موكولة إلى إيمان الأفراد وشعورهم بواجب الأخوة نحو إخوانهم من المال ، وقد اقتضى الحاجة بذل الكثير أو الأكثر .

وقد استنتج بعض الباحثين من تعبيرات القرآن فى عصر التشريع المكى « حقه » و « حق للسائل والمحروم » و « حق معلوم » فى الآيات ، أنها يمكن أن تلهم أن النبى ﷺ ، قد حدد مقادير معينة على أموال القادرين من المسلمين زكاة من أموالهم المتنوعة »[1] .

ولكن لم نجد ما يؤخذ هذا الاستلهام ، بل نجد ما يخالفه ، ولم تكن هناك حاجة إلى هذا التحديد ، والقوم يبذلون أنفسهم وكل ما بأيديهم ، وليس من الضرورى ألا يكون الحق معلوما إلا بتعيين النبى ﷺ بل يصح أن يكون معلوما بتعيين المنفق نفسه ، كما ذكر المفسرون ، أو بتعيين العرف حسب المصلحة والحاجة .

قال الحافظ بن كثير فى تفسير سورة « المؤمنين » عند قوله تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون » الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا : زكاة الأموال ، مع أن هذه الآية مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة ، فى سنة اثنين من الهجرة . والظاهر أن التى فرضت بالمدينة إنما هى ذات النصب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة . قال تعالى فى سورة الأنعام وهى مكية : « وآتوا حقه يوم حصاده »[2] .

وهذا الذى أستظهره هنا تعضده الآيات الكثيرة التى سقناها .

---

(١) سيرة الرسول - صورة مقتبسة من القرآن الكريم جـ ٢ ص ٢٤١ - تأليف محمد عزة دروزه .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ - ط . الحلبى .

عناية الإسلام بالمحتاجين بالمدينة :

المسلمون فى مكة كانوا مطهرين فى دعوتهم من أصل الشرك .

أما فى المدينة فقد أصبحوا جماعة لها أرض وكيان وسلطان ، ولهذا اتخذت التكاليف الإسلامية صورة جديدة ملائمة لهذا الطور ، صورة التحديد والتخصيص - أى تحديد القدر المعلوم للسائل والمحروم - تحديد فى صورة قوانين إلزامية بعد أن كانت وصايا توجيهية فحسب . وأصبحت تعتمد فى تنفيذها على القوة والسلطان ، مع اعتمادها على الضمير والإيمان ، وظهر هذا الاتجاه المدنى فى الزكاة ، فحدد الشارع الأموال التى فيها ، وشروط وجوبها ، والمقادير الواجبة والجهات التى تصرف لها ، والجهاز الذى يقوم على تنظيمها وإدارتها .

فقد أعلن القرآن المدنى وجوب الزكاة بصيغة الأمر الصريح ، ودعا بصورة واضحة إلى إيتائها . فترى فى سورة البقرة هذه العبارة :

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »(1) .

كما جاء تأكيد وجوبها بصيغ وأساليب شتى . ففى مطلع سورة التوبة التى أمر الله فيها بقتال المشركين الناكثين للعهود ، الذين ضرب لهم مهلة أربعة أشهر يسيحون فيها فى الأرض ويختارون لأنفسهم . قال تعالى :

« فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » .

---

(1) سورة التوبة الآية : ٥ .

فهذه ثلاثة شروط للكف عن قتال هؤلاء وتخلية سبيلهم :

أولها : التوبة عن الشرك . ودليله : أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ثانيها : إقامة الصلاة المفروضة على المسلمين . وهي مظهر الإيمان وأعظم أركان الإسلام المطلوبة في كل يوم من الأيام ، والفيصل بين المسلم والكافر وهي الرابطة الدينية والروحية والاجتماعية بين المسلمين .

ثالثها : إيتاء الزكاة المفروضة في أموال الأغنياء ، لذوي الحاجات ، ولمصلحة الأمة العامة . وهي الرابطة المالية الاجتماعية السياسية بين جماعات المسلمين .

ويقول الله سبحانه في شأن قوم آخرين من المشركين :

« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون »[1] .

فلا يتحقق لكافر الدخول في جماعة المسلمين ، وتثبت له أخوتهم التي تجعله فرداً منهم له مالهم ، وعليه ما عليهم ، وتربطه بهم رباطا لا تنفصم عراه إلا بالتوبة عن الشرك وتوابعه وإقامة الصلوات التي بها يلتقي المسلمون على طاعة الله ، ويتعارفون ويتحابون ، وإيتاء الزكاة التي بها يتواسون ويتكافلون .

وقد نبه العلماء منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم ، على أمر جدير بالذكر ، وهو أن سنة القرآن أن يقرن الزكاة بالصلاة ، وقلما تنفرد إحداهما عن الأخرى .

قال عبد الله بن مسعود : أمرتم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ومن لم

---

(١) سورة التوبة الآية ١١ .

يزك فلا صلاة له »[1] . قال ابن زيد : افترضت الصلاة والزكاة جميعا ، لم يفرق بينهما . وقرأ : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين » وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال : « رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه[2] » يعنى بذلك قوله : لا فرق بين شيئين جمعهما الله .

إن الإنسان فى نظر القرآن لا ينال البر ، ولا يستحق وصف الأبرار الصادقين ولا يدخل فى زمرة المتقين ، ولا ينتظم فى سلك المؤمنين إلا بإيتاء الزكاة ... بغير الزكاة لا يفارق المشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ، وبغير الزكاة لا يتميز من المنافقين الذين يقبضون أيديهم ولا ينفقون إلا وهم كارهون ، وبغير الزكاة لا يستحق رحمة الله التى أبى أن يكتبها لمانعى الزكاة (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون »[2] .

عناية السنة برعاية المحتاجين :

اشتمل القرآن الكريم على القواعد الكلية والمبادىء العامة ، ولم يتعرض الجزئيات والتفصيلات إلا فيما يخشى أن تضطرب فيه الآراء ، وتضل عنه الأهواء .

فجاءت السنة بالبيان القولى ، والتطبيق العملى للقرآن الكريم تفسر ما أبهمه ، وتفصل ما أجمله ، وتحدد ما أطلقه ، وتخصص ما عممه ، وفقاً لما فهم الرسول المعصوم عن ربه . وقد قال الله تعالى :

(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)[3] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٤ ص ١٥٣ ط المعارف .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٦ .

(٣) سورة النحل آية ٤٤ .

وفى رواية الفقراء والمحتاجين جاءت السنة بتأكيد ما جاء به القرآن الكريم من وجوب الزكاة عناية وحفظاً من ضياع ذوى الحاجات .

ففى العهد المكى نجد جعفر بن أبى طالب ، المتحدث باسم المسلمين المهاجرين الى الحبشة يخاطب النجاشى ويخبره عن النبى ﷺ . ويقول له فيما قال له : « ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام »[1] .

والمراد بذلك مطلق الصلاة والزكاة والصيام ، لا الصلوات الخمس ، ولا صيام رمضان ولا الزكاة المخصوصة ذات النصب والحول ، إذ أن هذه الفرائض المحددة لم تكن شرعت بعد[2] .

أما فى المدينة : فقد كانت مجالا رحباً للحديث عن فريضة الزكاة لتحديد نصبها ومقاديرها وشروطها ، ولبيان مكانتها والترغيب فى أدائها ، والترهيب من منعها .

تحديد السنة لنصب الزكاة ، ونصاب كل منها ، ومقدار الواجب فيها . وفصلت القول فى الأشخاص والجهات التى تصرف لها وفيها الزكاة . وهى المذكورة فى قول الله تبارك وتعالى :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »[3] .

ولكن الذى يعنينا هنا : هو تاريخ فرض هذه الزكاة ذات النصب والمقادير المحددة .

---

(١) رواه ابن خزيمة فى صحيحه من حديث أم سلمة . فتح البارى جـ٣ ص١٧٢

(٢) فتح البارى جـ ٣ ص ١٧١ .

(٣) سورة التوبة آية ٦٠ .

فقد عرفنا أن الزكاة المطلقة غير المقدرة فرضت في مكة ، كما دلت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ - وعرفنا أن القرآن المدني أكد وجوب الزكاة ، وفصل بعض أحكامها ، وأن السنة هي التي تولت تفصيل ما أجمله القرآن ، وبينت النصب والمقادير والحدود ، فمتى وقع هذا التحديد في العهد المدني ؟ أو بعبارة أخرى : في أي سنة فرضت الزكاة المحدودة ؟ .

المشهور : أنها فرضت في السنة الثانية من الهجرة . في رأي قبل فرض صيام رمضان ، وإلى هذا أشار الإمام النووي في باب « السير » من الروضة ولكن يعكر عليه ما ثبت عند أحمد والنسائي من حديث قيس بن سعد بن عبادة : وقال « أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة ، ثم نزلت فريضة الزكاة » .

قال الحافظ : إسناد صحيح . وهو دال على أن فرض صدقة الفطر ، كان قبل فرض الزكاة ، فيقتضي وقوعها بعد فرض رمضان[1] . وقد اتفقوا على أن صيام رمضان إنما فرض بعد الهجرة ؛ لأن الآية الدالة على فرضيته مدنية بلا خلاف ، وجزم ابن الأثير في تاريخه : أن فرض الزكاة كان في السنة التاسعة من الهجرة .

وقوى بعضهم ما ذهب إليه بما وقع في قصة ثعلبة بن حاطب : ففيها لما نزلت آية الصدقة بعث رسول الله ﷺ ، عاملا يأخذها منه . فقال : ما هذه إلا جزية - وأخت الجزية - والجزية إنما وجبت في التاسعة ، فتكون الزكاة في التاسعة .

قال في الفتح : ولكن الحديث ضعيف لا يحتج به[2] .

---

(١) فتح الباري جـ ٣ ص ١٧١ .
(٢) الكشاف ص ٧٧ .

واستدل الحافظ على أن فرض الزكاة كان قبل التاسعة بحديث أنس فى قصة ضمام بن ثعلبة ـ فى الصحيحين ـ الذى جاء يسأل النبى ﷺ ويناشده الله أن يصدقه الجواب فى عدة أمور . كان منها : أنشدك الله ، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ قال : نعم . وكان قدوم ضمام سنة خمس ، وإنما الذى وقع فى التاسعة بعث العمال لأخذ الصدقات . وذلك يستدعى تقدم فرضية الزكاة قبل ذلك[1] ، على أن آية « إنما الصدقات » التى رد الله بها على الطامعين الذين إذا أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، وهم المنافقون الذين طعنوا فى قسمة النبى ﷺ للصدقات ـ هذه الآية تدل على أن الزكاة كانت قائمة ومنفذة فعلا ، وأن الرسول ﷺ كان يتولى أمرها وتوزيعها ، وذلك قبل نزول هذه الآية بلا ريب .

الزكاة ثالثة دعائم الإسلام :

أكد النبى ﷺ فى المدينة فرضية الزكاة ، وبين مكانها فى دين الله . وأنها أحد الأركان الأساسية لهذا الدين ، ورغب فى أدائها ورهب من منعها بأحاديث شتى ، وأساليب متنوعة . تقرأ فى حديث جبريل المشهور حين جاء يعلم المسلمين دينهم بحسن السؤال : أنه سأل النبى ﷺ ما الإسلام ؟ فقال النبى ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » وفى حديث ابن عمر : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

أعلن الرسول ﷺ فى هذين الحديثين : أن أركان الإسلام خمسة ، بدأها بالشهادتين ، وثناها بالصلاة ، وثلثها بالزكاة .

---

(١) فتح البارى جـ ٣ ص ١٧١ .

فالزكاة في السنة - كما هي في القرآن - ثالثة دعائم الإسلام التي لا يقوم بناؤه إلا بها، ولا يرتكز إلا عليها.

وقد يكتفي النبي ﷺ في بعض الأحيان بذكر بعض هذه الأركان الخمسة دون بعض، بيد أن الصلاة والزكاة كانتا في مقدمة ما يأمر به، ويدعو إليه، ويبايع عليه.

ومن ذلك حديث ابن عباس في الصحيحين: أن النبي ﷺ بعث معاذ ابن جبل إلى اليمن فقال له:

«إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب(1)، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وإنما اقتصر على الصلاة والزكاة لشدة اهتمام الشارع بهما، وخاصة إذا كان المقام مقام الدعوة إلى الإسلام، فيكتفي بهما مع الشهادة، كما في قوله تعالى: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين).

وقد دل الحديث على بعث السعادة في الذين يقومون بجمع الزكاة وتفريقها، وأن الزكاة من شأنها أن تؤخذ لا أن تترك للأفراد وحدهم، وهو تأييد لآية: (خذ من أموالهم صدقة).

---

(1) نيل الأوطار جـ ٤ ص ١١٤، ١١٥ المطبعة العثمانية ط أولى.

صيانة حقوق الفقراء بالتحذير من منع الزكاة :

أنذر الرسول ﷺ مانعى الزكاة بالعذاب الغليظ فى الآخرة ، صيانة لحقوق الفقراء والمحتاجين ، وليذنبه بهذا الوعيد القلوب الغافلة ، ويحرك النفوس الشحيحة إلى البذل ، ويسوقها بعصا الترغيب والترهيب إلى أداء الواجب طوعا ، وإلا سقيت إليه بعصا القانون وسيف السلطان كرها .

فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع ، له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقيه - ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا النبى ﷺ لآية :

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة »[1] .

الشجاع : الحية الذكر . والأقرع : الذى لا شعر له لكثرة سمه ، وطول عمره . والزبيبتان : نقطتان سوداوان فوق العينين ، وهو أخبث الحيات .

ولم تقف السنة النبوية عند حد الوعيد بالعذاب الأخروى لمن يمنع الزكاة ، بل هددت بالعقوبة الدنيوية - الشرعية المقدرة - كل من يبخل بحق الله وحق الفقير فى ماله . وفى ذلك يقول الرسول ﷺ :

« ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين »[2] أى ابتلاهم الله بالمجاعة والقحط » .

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران - تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٢٦ - ٢٢٨

(٢) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٢٧٠ - مجمع الزوائد جـ ٣ ص ٩٦ .

وفى حديث ثان : « ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا »[1] .

وفى العقوبة الشرعية القانونية - التى يتولاها الحاكم أو ولى الأمر - جاء قوله ﷺ فى الزكاة : « من أعطاها مؤتجراً فله أجره ، ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله ، عزمة من عزمات ربنا ، لا يحل لآل محمد منها شىء »[2] .

علاج الفقر فى الإسلام أوسع مدى منه فى الأديان الأخرى :

نستطيع أن نسجل بعض الملاحظات الهامة والموجزة حول علاج الإسلام للفقر وسموه عما دعت إليه الأديان السابقة من البر والإحسان إلى الفقراء والضعفاء .

أولا : إن الزكاة الإسلامية لم تكن مجرد عمل طيب من أعمال البر ، وخلة حسنة من خلال الخير ، بل هى ركن أساسى من أركان الإسلام ، وشعيرة من شعائره الكبرى ، وعبادة من عباداته الأربع . يوصم بالفسق من منعها ، ويحكم بكفره من أنكرها . فليست إحساناً اختيارياً ، ولا صدقة تطوعية ، وإنما هى فريضة تتمتع بأعلى الدرجات - درجات الإلزام الخلقى .

ثانياً : إنها فى نظر الإسلام حق للفقراء فى أموال الأغنياء ، وهو حق قرره مالك الأموال الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى ، وفرضه على من استخلفهم من عباده فيه ، وجعلهم خزاناً له ، فليس فيها معنى من معانى

---

(١) سلسلة أحاديث الألبانى الحديث رقم ١٠٥ .

(٢) البيهقى ج ٤ ص ١٠٥ .

التفضل والامتنان من الغنى على الفقير . إذ لا منة لأمين الصندوق إذا أمره صاحب المـال بصرف جزء من ماله على عياله .

ثالثاً : إنها « حق معلوم » قدر الشرع الإسلامى نصبه ومقاديره وحدوده وشروطه ووقت أدائه وطريقة أدائه ، حتى يكون المسلم على بينة من أمره ، ومعرفة بما يجب عليه . وكم يجب ومتى يجب ؟

رابعاً : هذا الحق لم يوكل لضمائر الأفراد وحدها ، وإنما حملت الدولة المسلمة مسئولية جبايتها بالعدل وتوزيعها بالحق ، وذلك بواسطة « العاملين عليها » فهى حق يؤخذ وليست تبرعاً يمنح . ولهذا كان تعبير القرآن الكريم « خذ من أموالهم صدقة » وتعبير السنة « أغنيائهم » .

خامساً : إن من حق الدولة أن تؤدب ـ بما تراه من العقوبات المناسبة ـ كل من يمتنع من أداء هذه الفريضة . وقد يصل هذا إلى حد مصادرة نصف المـال ، كما فى حديث : « إنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا » .

سادساً : إن أى فئة ذات شوكة تتمرد على أداء هذه الفريضة ، فإن من حق إمام المسلمين أن يقاتلهم ويعلن عليهم الحرب ، حتى يؤدوا حق الله وحق الفقراء فى أموالهم . وهذا هو ما طبقه الخليفة الأول أبو بكر ومن معه من الصحابة ـ رضوان الله عليهم .

سابعاً : إن المرء المسلم مطالب بأداء هذه الفريضة العظيمة وإقامة هذا الركن الأساسى فى الإسلام ، وإن فرطت الدولة فى المطالبة بها ، أو تقاعس المجتمع عن رعايتها ، فإنها عبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه ، ويزكى بها نفسه وماله .

ثامناً : إن حصيلة الزكاة لم تترك لأهواء الحـكام ، ولا لتسلط رجال

الكهنوت - كما هو الحال فى اليهودية - ولا لمطامع الطامعين من غير المستحقين، تنفقها كيف تشاء ، بل حدد الإسلام مصارفها ومستحقيها كما فى آية : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » فقد عرف البشر من تجاربهم أن المهم ليس هو جباية المال ، إنما المهم هو أين يصرف ؟ ولذلك أعلن النبى ﷺ أن هذا المال لا يحل له ولا لأحد من آله .

تاسعاً : إن هذه الزكاة لم تكن مجرد معونة وقتية ، لسد حاجات عاجلة للفقير وتخفيف شيء من بؤسه ، ثم تتركه بعد ذلك لأنياب الفقر والفاقة ، بل كان هدفها القضاء على الفقر ، وإغناء الفقراء إغناء دائماً ، يستأصل شأفة العوز من حياتهم ، ويقدرهم على أن ينهضوا وحدهم بعبء المعيشة ؛ وذلك لأنها فريضة دورية منتظمة دائمة الموارد ، ومهمتها أن تيسر للفقير قواما من عيش ، لا لقيمات أو قروشا .

عاشراً : إنها تحقق أهدافاً روحية وأخلاقية واجتماعية وسياسية ، ولهذا تصرف على المؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله . فهى أوسع مدى ، وأبعد أهدافاً من الزكاة فى الأديان الأخرى[1] .

الإسلام يحث على الإنفاق ليقضى على الفقر :

ومن أجل حياة شريفة فى ظل الإسلام ، وحتى يعيش الفقير مكرما بين إخوانه حث الإسلام على الإنفاق والسخاء ، ومدح الكرم والكرماء ، ونفر من الشح وذم البخلاء . « السخى قريب من الله قريب من الناس ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس »[2] .

---

(١) فقه الزكاة جـ ١ ص ٨٨ .

(٢) رواه الترمذى .

قال الله تعالى :

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[1] .

ونحن نسوق هنا هذا النموذج الرائع من الترغيب فى الإنفاق ، يسلك فيه القرآن الكريم ، وكل سبيل إلى النفس الإنسانية ؛ ليحملها على الإنفاق رحمة بالفقراء والمحتاجين ، ويبعدها عن البخل ، ويحلل البخل والكرم ، وعواملهما فى النفس الإنسانية ، وآثارهما تحليلا رائعاً ، من آيات قليلة متتاليات ، تملك على المؤمن لبه وقلبه ، فلا ينتهى من قراءتها حتى تتفتح نفسه للجود بكل ما يملك ابتغاء مرضاة الله ، وطمعاً فى جنته وثوابه .

١ — يبدأ القرآن الكريم بالحث على الإنفاق فى سبيل الخير بتشويق النفس الإنسانية إلى الربح الذى يناله من جراء إنفاقها المال فى سبيل الله وفى سبيل القضاء على الفقر ، وهو ربح يفوق ما اعتاده الناس من الربح فى معاملاتهم ، فإن عادة التجار أن يربحوا خمسة بالمائة أو عشرة — مثلا — ولكن الربح المعنوى فى الإنفاق ، يبلغ عند الله أضعاف ذلك عشرات المرات .

يقول الله تعالى :

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبـــة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبـــة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)[2] .

فهذا أجمل مدخل إلى النفس الإنسانية التى تغلب عليها طبيعة التجار : دفع القليل ، وأخذ الكثير .

---

(١) سورة الحشر آية ٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٦١ .

٢ — ثم يبين بعد ذلك أن هذا الإنفاق الرابح ، إلا لمن خلصت نيته ، وسمت نفسه عن المن بما أنفق ، والإيذاء لمن أنفق عليه ، كما يقع من أكثر المحسنين ، فإن مثل هذا الإنفاق ، يؤذى كرامة الفقراء ، وكرامة النفس الإنسانية كلها ، ويؤدى إلى العداوة والبغضاء .

أما الذين ينفقون لوجه الله ، ثم لا يؤذون ، ولا يمنون ، فهؤلاء هم الذين ضمن الله لهم ذلك الأجر العظيم ، وشملهم برحمته وعنايته ، فلا يخافون ولا يحزنون . وفى ذلك يقول الله تعالى :

(الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1] .

٣ — ثم يتعرض القرآن الكريم لهؤلاء الذين يتبعون إنفاقهم بالمن والأذى ، بأن هذا الإنفاق لا خير فيه ، وأن خيراً منه قول كريم ، ومغفرة لإساءة المسيء ، فإن الله الغنى عن عباده ، يعطيهم ولا يسيء إليهم فى عطائه ، بل يحسن إلى المسيء منهم تفضلا منه وكرما ، وإن كان هذا شأن الإله الغنى عن عباده ، فما بالك بالعبد الذى لا يستغنى عن الناس ، ولا يستطيع العيش معهم بالأذى فى القول أو الشعور ؟ وفى هذا يقول الله تعالى :

(قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم)[٢] .

٤ — ثم زاد على ذلك بتقرير حقيقة أخرى . ضرب لها الأمثال :

وهى : أن الإنفاق الذى يخالطه الاستكبار على الناس ، وإيذاؤهم بالمن عليهم ، هو باطل الأجر ، عديم الفائدة ، شأنه فى ذلك ، شأن الذى ينفق المال ليتحدث الناس عنه فى المجامع ، ويسبغوا عليه المديح ، والثناء عليه

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٦٢ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦٣ .

بالإحسان والفضل والكرم ما تتطلع إليه النفوس الصغيرة التي فقدت إيمانها بالله والرغبة في ثوابه في الدار الآخرة .

إن المنفق المنان ، والمنفق المرائي ، كلاهما ليس لهما أجر على إنفاقهما . هذا أبطل عمله برياته ، وذلك أبطله بإيذائه ، وما مثلهما إلا كمثل صخرة ملساء ، غشيتها طبقة خفيفة من التراب ، فيظنها الرائي أرضاً منبتة طيبة ، ولكنها في حقيقتها صخر لا ينبت ، وسرعان ما يكشف عنه المطر الوابل تلك الطبقة الخفيفة من التراب ، فيبدو للأنظار على حقيقته .

وهكذا نفس المرائي ، أو المنان نفس ليس فيها للخير جذور مثبتة ، وسرعان ما تبدو مفاعلها للناس عند شدة ، فإذا هي صماء لا تنبت براً ، ولا تبذل خيراً ، وإلى هذه المعاني كلها تشير الآية الكريمة التالية :

قال الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ولا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين)[1] .

٥ — وأما النفس التي تبذل الخير لوجه الله ، ورجا أجره وثوابه ، بذلا منبثقاً عن إنسانية كريمة ، برة رحيمة ، ولا تريد جزاء ولا شكورا . فهي في تدفقها بالبذل تدفق الينبوع الذي لا ينضب ولا يغيض ، فوق ربوة عالية غنية بالطبقات الترابية المنبتة ، إن أصابها مطر شديد آتت أكلها ضعفين وإن أصابها المطر الخفيف أو أطلها الندى ، آتت أكلا فيه غناء وفائدة .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٦٤ .

هكذا النفس المؤمنة المحتسبة أجر الله وجنته : نفس غنية بدوافع الخير وبذوره ، لا تنقطع عنه في يسر أو عسر ، إن كثر ما في أيديها من المال ، أشاعت الرغد والرفاهية فيمن حولها ، وإن قل مالها لم تبخل ولم تنقبض ، بل بذلت ما في وسعها لإسعاف المحتاجين ، وإنقاذ البائسين ، ثم هي لا تبالي بثناء الناس ولا بذمهم ، تبر الإنسانية المفجوعة ، ولو لم تلق كفاء برها من ثناء وتأييد ، أو لقيت منهم ما لقيت من ذم وجحود . هذا هو المعنى الذي جاءت به الآية التالية ، تشير إليه .

قال تعالى :

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير)[1] .

مثلان رائعان فيهما تحليل نفسي رائع لكل من النفس المرائية في إنفاقها ، والنفس الخالصة التي تبغي وجه ربها . قد عبر عنهما بأسلوب بليغ معجز ، فتبارك الله منزل هذا الكلام على النبي الأمي الأمين ﷺ .

٦ — وليس آلم للنفس ، ولا أدعى إلى الذعر من أن يعمل الإنسان عملا ، ثم يفقده أحوج ما يكون إليه . وليس هو إلا المرائي والمنان ، حتى إذا جاءه يتفقده في قلوب الناس ، وجد الأذى والمن ، قد أفسده ومحاه ، وإذا جاءه يتفقده عند الله وجد الرياء قد أطاح به كما تطيح الريح العاصفة بزرع يابس .. أفترى مثل هؤلاء لو أن أحدهم كانت له جنة فيها من الأشجار والثمار ، ما غلا وطاب ، وقد بذل فيها جهده من عمل وإنفاق ورعاية ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٥ .

وامتد به الكبر حتى أوفى على الموت .. وله أطفال صغار يحرص على أن يخلف لهم ما يكفيهم الحاجة والعوز والسؤال .. فما هى إلا ريح عاصفة ، مسمومة ، فيها نار تجتاح الجنة وأشجارها ، فيفقدها أحوج ما يكون إليها فى نهاية عمره ، ويفقدها أولاده . أحوج ما يكونون إليها فى مستقبل أيامهم .

وأى إنسان يتمنى هذه النهاية لجهد الحياة ، وهو على أخر خطوة من الحياة ؟ ! [1] .

تلك هى نهاية الذين يجودون ، إلا ليسمعوا الثناء يصم آذانهم . ولا ينفقون ، إلا ليؤذوا المجتمع بإحسانهم منا واستكباراً واستعلاء . إنها النهاية التى تذهب بالمال والثناء والثواب معاً .

فيالها من نهاية مفجعة ، يرجو السلامة منها كل ما قل وإلى هذا تشير الآية التالية :

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيـــل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)[2].

٧ — حسب النفس المؤمنة ، هذا الترغيب والتوجيه وضرب الأمثال . وها هى تميل الآن إلى الإنفاق .. فمن أى أنواع المال يجب أن تنفق ؟ .

إن النفوس الخيرة ، لا تنفق إلا من خير المال وأطيبه ، حتى يقع الإنفاق موقعه فى المجتمع والأفراد ، إنها تأبى أن تنفق من خبيث المال أو الطعام

---

(١) اشتراكية الإسلام ص١٤٣ د / مصطفى السباعى .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٦ .

مالو عرض عليها لأبت أخذه تأففاً وانتقاصاً لقيمته .. والكريم من الناس رحمته من يعاملهم بما يحب أن يعاملوه به . . أفلا يرى المؤمن أن الله غنى تملأ الدنيا كلها ، ويهب الناس على ما يحمدونه عليه ويشكرونه من أجله ؟.

هذا مع استغنائه عن حمدهم وثنائهم ، ولكن الكامل من أعطى ما يحمد عليه ، وبذل ما يقع فى القلوب موقعاً جميلا . وفى ذلك يقول الله تعالى بعد ذلك .

(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد)[1] .

٨ — لم يبق لاندفاع المؤمن نحو بذل المال الطيب ، مخلصاً لله وجهه ، إلا خاطرة قد تلم بالنفس الإنسانية ، كلما همت بالإنفاق .

تلك هى أن المال إنما يجمعه الإنسان بجهده وعمله ، فكيف يعطيه من لم يتعب فيه ، ولم يشارك فى جمعه ؟. والإنسان معرض فى الحياة للنكبات ، فلماذا لا يمسك عن البذل خشية الفقر والفاقة فى المستقبل ؟ . وما الذى يربطه بهؤلاء الفقراء من روابط حتى يؤثرهم على نفسه ، وعلى أولاده فيعطيهم ما يحرم منه نفسه وأولاده ؟ .

إنها خواطر تلم بكل نفس إنسانية ، حين يخطر لها خاطر الإنفاق ، ولكنها خواطر سوء وفحشاء . . وأى سوء وفحش أكبر من أن لا يذكر الإنسان فى الحياة إلا نفسه وأولاده ؟ وأية فاحشة أشد من أن يقبض المال عن حاجته الضرورية وحاجة أهله ، عمن يحتاج إليه ليقيم ضرورات الحياة ،

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٧ .

وليدفع عن نفسه وأهله آلام الفقر والجوع والمرض والضعف ؟.

إنها وسوسة الشيطان، تخوف المنفق من الفقر وتأمره بالإمساك، والقسوة والأثرة.. وليس لهذا من أثر فى واقع الحياة، وفى دنيا الخير، والخلق الكريم، فالله هو الرازق المنعم، يعطى خيره من يستحقه ومن لا يستحقه، أفيترك المنفقين الذين يرون الإنسانية المعذبة ابتغاء وجه الله ومرضاته عرضة للآلام والفقر ونكد الحياة ؟.

إن عدالة الله تأبى ذلك، وما المنفق إلا مقرض لله ما ينفق، والله يرد القرض بأحسن منه، ففيم يخشى المؤمن الفقر ؟ وكيف يعيش فى جو من القسوة والبخل والأنانية ؟.

قال تعالى:

(الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم)(1).

٩ — أترى المؤمن حين تلم به خواطر السوء من بخل وإمساك ؟

يستجيب لها وهى وسوسة الشيطان ووعده الكاذب ؟ أم يستجيب لإيمانه ولنداء ربه ولوعده الحق ؟.

إن المؤمن الحق، من وثق بالحق، وكذب الباطل، وآثر غيره على نفسه ولم يؤثر نفسه على غيره، امتد بصره إلى آفاق أوسع من نفسه وبيته وعائلته. آفاق العيش فى عالم سعيد، تغمر السعادة أبناءه جميعاً.

ذلك هو الإيمان وتلك هى الحكمة من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيراً، وما يؤتاها إلا من علم الله منه سلامة الفطرة وصدق اليقين وبعد النظر.

---

(1) سورة البقرة الآية ٢٦٨.

قال الله تعالى :

(يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب)[1] .

الآن تهيأت نفس المؤمن للبذل راغبة فى ثواب الله ، معرضة عن دسائس الشيطان ، لا تخشى من البذل فقراً ولا إقلالا ، فكيف يكون إنفاقها ؟ أتعلنه فيكون فى الإعلان تشجيع للخير وبث الأمل والتفاؤل فى نفوس اليائسين ؟ أم تخفيه عن أعين الناس ليكون أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء ؟ ! كلا الأمرين خير ، ولكن الإخفاء خير من الإعلان ، حتى يتمحض لله خالصاً من كل شائبة تكدر صفوه ، وتجعل للنفس فيه حظا غير محمود ، والله لا يخفى عليه خافية من عمل العبد وإنفاقه . ورضا الله وحده هو المقصود بعمل الخير والبر والرحمة ، فليترك ذلك لله وحده ، يطلع عليه فيثيبه ، ويأخذ ويخلف خيراً منه ، ويستقرضه فيرده أضعافاً مضاعفة .

قال الله تعالى :

(وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار • إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير)[2] .

١٠ — فإذا عزم على الإنفاق مخلصاً لله مبتغياً وجهه ، فلمن يكون الإنفاق ؟ إن فى المحتاجين البر والفاجر ، وفيهم القريب والبعيد ، وفيهم العامل المجاهد الذى وهب للخير نفسه فلم يسلك لجمع المال سبيلا ، وفيهم من أخذ يضرب فى الأرض ليكسب ما يكفيه فلم يكن فى كسبه ما يكفيه فلأى هؤلاء يعطى ؟ .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

(٢) سورة البقرة الآيتان ٢٧٠ ، ٢٧١ .

أما العدالة : فهو أن يسوى بين المحتاجين ، برهم وفاجرهم ، عاملهم ومقصرهم ، فليس بمجال العقوبة على المعصية والتقصير أن يمنع حق الحياة فى العيش الكريم ، وليس الناس هم الذين يزعمون لأنفسهم حق العقوبة على المعصية والتقصير ، إنما الله وحده هو الذى يملك هذا الحق ، وقد يكل إلى المجتمع عقوبة التأديب والمؤاخذة إلا أن ذلك لن يكون بالتضييق فى العيش والحرمان من ضرورات الحياة ، وفائدة الإنفاق الخالص لوجه الله تعود على المنفق نفسه ، ويوفى إليه وحده الأجر ، فما يبالى أين يضع صدقته مادام ذلك لله وفى عباد الله . قال تعالى :

(ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون)[1] .

١١ — وأما ما فوق العدالة ، فهو أن يتوخى بالإنفاق أكثر الطبقات المحتاجة نفعاً للمجتمع ، واستمساكا بعرى الفضل والحياء والكرامة . فلا يسألون الناس مع حاجتهم ، كهؤلاء الذين يتفرغون للعمل العام ولخدمة المجتمع وللدفاع عن كرامته وسيادته ، ثم يلوذون بحمى منيع من العفة والحياء . قال تعالى :

(للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم)[2] .

إلى هنا بلغ القرآن الكريم غايته فى تشويق المؤمن للإنفاق ، وحثه على

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٣ .

السخاء ، وتخليص إنفاقه من شوائب المن والأذى والرياء ، وعلمه كيف ينفق وكيف يضع النفقة فى مواضعها ؟ ورغبه فى ذلك ترغيباً يجعله يؤثر رضا الله ومغفرته وثوابه ، والبر بإخوانه وأبناء قومه على كل ما فى الحياة من لذة ومال وشهوة . لا جرم بعد ذلك أن تصبح نفس المؤمن متفتحة للخير من جميع أبوابه ، مندفعة إلى الإيثار إلى منتهى غاياته . لا جرم أن تصبح نفسه مستعدة لأن تتلقى بكل رضا واطمئنان ومبادرة إلى الطاعة والتنفيذ . قول الله تعالى يطلب الإنفاق فى كل حالة من حالات الإنسان ، ليله ونهاره ، سره وعلانيته :

(الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1] .

وبعد أن أعطى القرآن الكريم ، الصورة الواضحة للإنفاق الذى يحبه الله ، وينتفع به المجتمع . ذكر صورة أخرى تقابل تلك الصورة كما هو شأن القرآن فى مثل هذه المناسبات ؛ ليكمل الإقناع والحث على الإنفاق والترغيب فيه . تلك هى صورة المرابين الذين يأخذون من المجتمع ولا يعطونه ، يأخذون من الفقير الذى يحتاج للأخذ ، ومن المضطر الذى يحتاج للعون ... صورة كريهة بغيضة ، صورة الذى يتخبطه الشيطان من المس .

قال تعالى :

(الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) [2] .

صورة يقترن بها الوعيد والتهديد ، كما اقترن بالإنفاق الترغيب

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

والتشويق ، تهديد من الله ورسوله بحرب المرابى إلى أن يرد إلى الناس كل ما أخذ منهم . قال تعالى :

(فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون)[1] .

الترغيب والترهيب لعلاج الفقر :

ولقد سلك القرآن الكريم مسلك القصص للترغيب فى إعانة الفقراء ، وسلك كذلك مسلك القصص للترهيب من إهمال الفقراء .

ولنضرب لذلك أمثلة :

فقد جاء فى سورة القلم ، قصة قصيرة ، تصور نتيجة الإمساك عن الفقراء ، وحرمانهم من حقوقهم فى أموال الأغنياء ، صورة مؤثرة ترتعد لها فرائص المؤمنين الموسرين .

إنها قصة رجل يملك جنة وارفة الظلال ، مكتظة بالفواكه والثمار ، كان قد اعتاد عند جذاذها وقطافها أن يعطى الفقراء والمساكين - فى كل موسم - نصيباً منها ، ثم مات الرجل ، ورأى أولاده بعد وفاته أن يمنعوا أولئك الفقراء والمحتاجين نصيبهم الذى كانوا يأخذونه فى كل موسم ، مبررين ذلك بينهم وبين أنفسهم بما يبرر به كل بخيل وظالم بخله ، وشحه ، من أن هؤلاء الفقراء لا حق لهم فى مال لن يتعبوا بجمعه ولا بغرسه وزراعته ، كذلك أجمعوا على حرمان أولئك من نصيبهم فى البستان إلا أخاً لهم - وسطاً فى عمره بينهم - نهاهم عن ذلك ، فأصروا على الظلم وبيتوا أمرهم على أن يقطفوا الثمار عند انبلاج الصبح قبل أن يتعالم الفقراء بذلك ويحضروا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٩ .

لأخذ نصيبهم ، ولكن الله كان أبر بالمحتاجين من أن يتركهم لعنت الظالمين وشحهم ، فأرسل إلى جنتهم بلاء فى غمرات الظلام ، فاقتلع أشجارها . وأطاح بها فغدت قاعاً صفصفاً كأن لن تغن بالأمس .

ويذهب الإخوة فى صباحهم مبكرين إلى حديقتهم حتى إذا وصلوا إلى مكانها لم يروا لها أثراً ، فالتبس عليهم الأمر ، وظنوا أنهم قد ضلوا الطريق إليها ؛ فلقد تركوها بالأمس خضراء دانية القطوف والظلال ، فأين هى ؟ وأين أشجارها وثمارها ؟ وأين مياهها وأنهارها ؟

وفى وسط هذه الحيرة يردهم أخوهم إلى رشدهم ، ويؤكد لهم أنها هى جنتهم ولكن الله حرمهم منها منذ عزموا على حرمان الفقراء والمحتاجين من نصيبهم المعتاد فيها ، وأرادوا أن يلقى بعضهم اللوم على بعض فيما قرروه من حرمان الفقراء ثم اعترفوا بذنبهم وطغيانهم وأنابوا إلى ربهم وسألوه أن يعوضهم خيراً منها . ويعقب القرآن الكريم على ذلك : بأن هذا هو عذاب الباغين المانعين لحقوق الفقراء ، ولعذاب الآخرة أكبر ، ولثواب الله للمتقين أعظم ، وأن هذا هو العدل الذى لاحيف معه . قال الله تعالى فى هذه القصة :

(إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ‌* ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم * فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد ـ أى منع ـ قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالون * بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها * إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر

لو كانوا يعلمون * إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم * أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون)(١) .

وهذه قصة أخرى :

هي قصة قارون الذي بغى على قومه بسبب غناه ، ففتن به بعض الناس، وتمنوا أن لو كان لهم مثل غناه . ولكن أهل العلم بينوا لهم أن الإيمان والعمل الصالح الذي يثيب الله عليه خير عقبى للصابرين ، ثم خسف الله به الأرض وجعله عبرة . وإليك آيات هذه القصة من كتاب رب العالمين . قال تعالى :

(إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون * تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)(٢) .

---

(١) سورة القلم الآيات ١٧ - ٢٦ .

(٢) سورة القصص الآيات من ٧٦ - ٨٦ .

الله سبحانه رغب فى التعاون ، وحذر من التخاذل . قال تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)[1] .

وأوجب أن يهتم الإنسان بشئون إخوانه . قال ﷺ : « من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »[2] .

ورغب فى تفريج كربة الفقير ، ومد يد المعونة لكل محتاج قال ﷺ : « من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة »[3] .

---

(١) سورة المائدة الآية ٢ .

(٢) رواه الطبرانى .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

خاتمــــة

اعتبر الإسلام كل إنسان مسئولا عمن تحت يده ، ومسئولا عن شئون المجتمع واستقامته . ولذا يقول الرسول ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[1] .

فأوجب الإسلام رعاية الفقراء ، ولا يستقيم المجتمع إلا برعايتهم وإعطائهم ما يكفيهم .

كذلك أوجب الإسلام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والمعروف : هو كل ما أمرت به الشريعة ، واستحسنته المروءات .

والمنكر : كل ما أنكرته الشريعة من ظلم وبغى وتخل عن الواجب ومنع الحقوق التى وجبت للفقراء فى مال الأغنياء ، وهو ما تنكره المروءات من قسوة وبخل . قال تعالى :

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[2] .

وأعظم أنواع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ما كان تجاه الطغاة والأغنياء الذين لاينفذون شرائع الله ، فيأكلون أموال الفقراء والله أعلم .

هدانا الله أحسن اهتداء ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

دكتور : محمد محمد عبد الحى

مدرس الفقه الإسلامى وأصوله

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

مراجع البحث

١ - القرآن الكريم .

٢ - كتب العهد القديم والعهد الجديد .

٣ - تفسير جزء عم : للإمام محمد عبده .

٤ - تفسير ابن كثير : الحافظ بن كثير .

٥ - تفسير ابن جرير الطبرى .

٦ - تفسير جامع أحكام القرآن للقرطبي .

٧ - روح المعانى الألوسى .

٨ - صحيح البخارى : بشرح ابن حجر .

٩ - صحيح مسلم : بشرح النووى .

١٠ - صحيح الترمذى : بشرح ابن العراقى .

١١ - صحيح الترمذى : بشرح الخطابى .

١٢ - سنن أبى داود : بشرح السيوطى .

١٣ - ابن خزيمة .

١٤ - فتح البارى .

١٥ - الترغيب والترهيب .

١٦ - مجمع الزوائد .

١٧ - سلسلة أحاديث الألبانى .

١٨ - سنن البيهقى .

١٩ - فتح القدير : للكمال بن الهمام .

٢٠ - نيل الأوطار : للشوكانى .

٢١ ـ فقه الزكاة : للدكتور / يوسف القرضاوى .

٢٢ ـ الأموال : لأبى عبيد .

٢٣ ـ ابن عابدين على الدر المختار .

٢٤ ـ سيرة الرسول : لمحمد عزة دروزة .

٢٥ ـ اشتراكية الإسلام : للدكتور مصطفى السباعى .